الصوفية

فى تدبرهم للقرآن الكريم

للأستاذ
حسين كامل المليطاوى

ألقيت فى قاعة الشيخ محمد عبده بالأزهر الشريف بتاريخ
١٧ رمضان سنة ١٣٨٤ هـ الموافق ١٩ يناير سنة ١٩٦٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الصوفية فى تدبرهم للقرآن الكريم

الحمد لله الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، سبحانه ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير.

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا رسول الله البشير النذير ، والسراج المنير ، صاحب العلم المصون ، والسر المكنون ، علم الهداية وأمام أهل التقى والعناية ، من اصطفاه الله على إخوانه النبين وأوحى إليه ما أوحى ، وأرسله رحمة للعالمين ، وأسوة للعالمين ، ورضى الله عن آله الكرام الذين تأسوا به صلى الله عليه وسلم فى أقواله وأفعاله وأحواله فصاروا نجوم السماء الصافية ، الذين يهتدى بهم السالكون فى ظلمات البر والبحر ، فلا يضلون السبيل ، ولا يترددون ولا يتحيرون ، ولا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون ، ورضى الله عن السادة الصوفية الذين تأسوا بسادتنا الصحابة ، فاستحقوا ما وصفهم به الإمام الكلاباذى حين قال فيهم :

(سبقت لهم من الله الحسنى ، والزمهم كلمة التقوى ، وعزف بنفوسهم عن الدنيا ، صدقت مجاهداتهم فنالوا علوم الدراسة ، وخلصت عليها معاملاتهم فمنحوا علوم الوراثة ، وصفت سرائرهم فأكرموا بصدق الفراسة ثبتت أقدامهم ، وزكت أفهامهم ، وأنارت أعلامهم ، فهموا عن الله ،

وساروا إلى الله ، وأعرضوا عما سوى الله ، خرقت الحجب أنوارهم ، وجالت حول العرش أسرارهم ، وجلت عند ذى العرش أخطارهم ، وعميت عما دون العرش أبصارهم ، آذانهم واعية ، وأسرارهم صافية ونعوتهم خافية ، فهم أجسام روحانيون ، وفى الأرض سماويون ، ومع الخلق ربانيون ، سكوت نظار ، غيب حضار ، ملوك تحت أطمار ، أنزاع قبائل ، وأصحاب فضائل ، وأنوار دلائل ، صفوية صوفية ، نورية صفية ، ودائع الله بين خليفته ، وصفوته فى بريته ، ووصاياه لنبيه ، وخفاياه عند صفيه ، هم فى حياته أهل صفته ، وبعد وفاته خيار أمته ، لم يزل يدعو الأول الثانى ، والسابق التالى ، بلسان فعله ، أغناه ذلك عن قوله) .

ولا عجب مع وصفهم هذا ، أن ينطقهم الله بالحكمة من مشكاة أنواره .

(يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا)

ولا عذر للمتخلف عن الانتفاع بعلمهم وتعاليمهم ، بعد أن ارشدوا وعلموا ، بالحال والمقال ، والعبرة والعبرة ، والذوق والشوق ، واليقين والإيمان ، والسكون والهيمان ، والصحو والغيبة ، والفناء والبقاء ، وما إلى ذلك من مواجيدهم التى فاضت بها مشاعرهم نظما ونثرا ، بعد أن جذبها حب الله تعالى ، فغابوا عن الفانى بالباقى ، وعن الكون بالمكون ، ثم ردوا من الفناء فى الله إلى البقاء به ، وورثوا من سماء الحب علم الهداية ، فربطوا أهل الأرض بأهل السماء ، وسبحان الله الفعال لما يشاء .

وان تعجب فعجب أن تغيب عنا أعيانهم ، وأن تبقى فى القلوب أمثالهم ، تلك الأمثال التى توقظ الغافل ، وتلهب المتيقظ ، فيزداد الذين آمنوا إيمانا ،

والذين أحسنوا إحسانا ، والله يختص برحمته من يشاء .

وحق للامام الشعرانى أن يقول :

كفى بعلم القوم شرفا أن يطلبه سيدنا موسى عليه السلام من الخضر عليه السلام ، وقد أشار إليه قوله تعالى (فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما ، قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشد) .

وصدق الإمام جلال الدين الرومى حين قال :

سبحان من قدر فهدى ، ووفق كل كائن للغاية من فطرته . ان إلهام النحل هو الشهد ، وإلهام حشرة القز نسج الحرير ، وإلهام البلبل أغانى السحر ، وإلهام رجال الله نور يشهدون به ملكوت السموات والأرض .

صدقوهم هم مصابيح الدجا . أكرموهم هم مفاتيح الرجا ، إتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون .

وقد أدركت بحمد الله من هؤلاء رجلين ، سلك حبهما فى قلبى مسلك الروح فى الجسد ، وهما العارفان بالله سيدى عبد السلام الحلونى ، وتلميذه الأول الشيخ على عقل ، وانتقل أولهما إلى رضوان الله فى أكتوبر سنة ١٩٤٤ والثانى فى مارس سنة ١٩٤٨ ، وهما من خلفاء قطب زمانه وآية عصرة ، ومجدد قرنه ، العارف بالله تعالى سليل مولانا الإمام الحسين رضى الله عنه ، سيدى الشيخ محمد أبى خليل ، ساكن ضريحه المشرق بالزقازيق ، فقد سلكت طريقته المثلى على يديهما ، فعلمت من دينى ما كنت أجهل ،

ومن سار على الدرب وصل ، جعلنى الله أهلا لبنوتهم ، ووصل حبلى بحبلهم ، ومدنى بمددهم ، وأدبنى بأدبهم ، وجزاهم الله عنى خير ما يجزى به الأئمة العارفين الراشدين وبعد :

فقد أتيح لى أن أطلع على تأويل السادة الصوفية لآيات القرآن الكريم ، فدلنى تأويلهم على عمق أفكارهم ، وصفاء سرائرهم ، وأيقنت أنهم فيما ذهبوا إليه إنما غرفوه من فيض الإلهام الربانى ، الذى لا يحد ولا يعد ، لأنه من كلمات الله التى لا تنفد ، وهو ما يفسر لنا تأثر القلوب عند سماعه مهما كانت غافلة ، لأن كلامهم أشبه بالمغناطيس الذى يجذب إليه الحديدة الصماء بالشحنة التى دخلت عليه .

ولهذا رأيت لتأويلاتهم أثرا بالغا فى نفسى ، فأحببت تعميما للفائدة أن أنقل إلى أسماعكم بعض تلك التأويلات التى هى من ثمرات تربيتهم الإسلامية العليا ، التى يعلمون الناس فيها أن المسلم يجب أن يتدبر كلام الله حرفا حرفا ، وكلمة كلمة ، على أنه مخاطب به ، كما يعلمونهم أن القرآن كلام الله ، وعلامة الإيمان بالله محبة القرآن ، وعلامة محبة القرآن محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلامة محبته صلى الله عليه وسلم اتباعه فى الأقوال والأفعال والأحوال ، ودليلهم قوله تعالى :

(قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) [1]

وهم ينددون بالذين يسمعون القرآن بآذانهم ولا تعيه قلوبهم ويستندون فى التنديد بقوله تعالى :

---

[1] آية ٣١ سورة آل عمران .

(ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وأتبعوا أهواء هم [١]) .

وبقوله تعالى :

(ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون)

وبقوله تعالى :

(إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألق السمع وهو شهيد) .

وكذلك يحتجون فى التنديد بقوله ابن عباس رضى الله عنه :

(لأن أقرأ البقرة وآل عمران فى تدبر ، خير من أن أقرأ القرأن كله هذرمة) .

وإذا نقلت لكم تأويل السادة الصوفية فانى إنما أعنى بها أهل الحق الذين قالوا أصولنا أشياء :

(التمسك بكتاب الله تعالى ، والإقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وأكل الحلال ، وكف الأذى ، واجتناب الآثام ، والتوبة ، وأداء الحقوق ، أما غير هؤلاء فلا شأن لنا بهم مهما ادعوا أنهم صوفية) .

وقبل أن أسمعكم بعض تلك التأويلات لابد من أن أنقل إليكم مانبهوا إليه من أن تأويلهم لآيات الله ليس معناه إحالة الظاهر عن ظاهره ،

---

[١] آية ١٦ سورة محمد .

وإنما يكون إحالة لو قالوا لا معنى للاية إلا هذا ، وهم لا يقولون ذلك ، ولكنهم يقولون أن ثمت أفهاما باطنه تفهم من الآية لمن فتح الله قلبه ، ودليلهم قوله صلى الله عليه وسلم :
(لكل آية ظاهر وباطن وحد ومطلع) وهم يقرون الظواهر على ظواهرها ومراداتها وموضوعاتها ويفهمون عن الله ما أفهمهم

وقد بينوا أن الظاهر بمعنى اللفظ وما دل عليه الكلام من الأمر والنهى والقصص والأخبار والتوحيد وغير ذلك من علوم القرآن وهو ماعنى به المفسرون ، أما الحد فاعتنى به الفقهاء لأنهم استنبطوا منه الأحكام ، وأما المطلع فلأهل الحقائق من أكابر الصوفية لأنهم يطلعون من ظاهر الآية إلى أسرار باطنها فيكشف لهم من أسرارها علوم وغوامض تتجلى لهم عند استعمال الفكرة فيها ، حتى لقد قال أبو سليمان الدارانى ربما جاءت الآية خمس ليال فلولا أنى أترك الفكر فيها ما جزتها أبدا ، وربما جاءت الآية من القرآن فيطير معها العقل ، فسبحان الذى يرده بعد ذلك .

وبينوا لنا أن التمام فى التلاوة أن يتدبر التالى للقرآن الكريم باطن الكلام ، ويتفكر فى غوامض الخطاب ، يوقف قلبه على معانى المراد ، فان الكلام عزيز من عزيز ، ولطيف من لطيف ، وحكيم من حكيم ، وعلى من على ، ظاهره سهل قريب ، وباطنه بحر عميق ، يقول السامع إذا عقله قد فهمته لتجلى فجواه ، فإذا شهده كأنه ما سمعه لدقيق معناه يحسب العاقل أنه قد عرفه لظهور بيانه ، وتفصيل حكمته ، فإذا عرف المتكلم به كأنه ما عقله لعمق بحاره وسعة أقطاره .

وقد تخيرت لكم بعض تاويلاتهم وإشاراتهم فى بعض الآيات وهى تريكم كيف يتلون القرآن الكريم حق تلاوته ، وكيف يتدبرونه من سويداء قلوبهم ، وقد استحسنت أن أبدأ بفاتحة الكتاب التى يرددها كل مؤمن فى صلواته .

(بسم الله الرحمن الرحيم)

يقولون : الباء بهاء الله عزوجل ، والسين سناء الله عز وجل ، والميم مجد الله عز وجل ، والله هو الأسم الأعظم الذى حوى الأسماء كلها ، والرحمن الرحيم اسمان رقيقان نفى الله بهما القنوط عن المؤمنين من عباده .

(الحمد لله رب العالمين)

يقولون كأن سائلا سأله تعالى لم اختصصت بالحمد ؟ فقال : لأنى رب العالمين ، أنا أوجدتهم برحمتى ، وأمددتهم بنعمتى ، فلا منعم غيرى ، فأستحققت الحمد وحدى ، منى كان الأيجاد ، وعلى دوام الأمداد ، فأنا رب العباد ، فالعوالم كلها على تعدد أجناسها واختلاف أنواعها فى قبضتى وتحت تربيتى ورعايتى .

(الرحمن الرحيم)

ثم هذة التربية التى ربى سبحانه بها خلقه إنما هى رحمة منه وإحسان ، لا لزوم عليه ولا إيجاب ، ولذلك وصله بقوله الرحمن الرحيم ، أى الرحمن بنعمة الإيجاد ، الرحيم بنعمة الامداد ، نعمتان ما خلا موجود منها ، ولا بد لكل مكون منها ، نعمة الايجاد ونعمة الإمداد ، أنعم أولا بالإيجاد وثنى بتوالى الإمداد .

(مالك يوم الدين)

أنا المالك على الإطلاق ، والأمر لنا على الدوام ، لمن فهم عنا من الأنام ولا عبرة بظواهر الأشياء ، وإنما العبرة بالسر المكنون ، وليس ذلك الابظهور الحق وارتفاع عطاياه ، وزوال أشعاره وخفاياه ، فإذا تحقق ذلك التجلى والظهور ، استولى على الأشياء الفناء والدثور ، وانقشعت الظلمات بإشراق النور ، فهناك يبدو عين اليقين ، ويحقق الحق المبين ، وعند ذلك تبطل دعوى المدعين ، كما يفهم العامة بطلان ذلك يوم الدين ، حين يكون الملك لله رب العالمين ، وليت شعرى أى وقت كان الملك لسواه ، حتى يقع التقييد ، الملك يومئذ لله وقوله (والأمر يومئذ لله) لولا الدعاوى العريضة من القلوب المريضة .

(إياك نعبد وإياك نستعين)

إياك نعبد نخضع ونذل ونعترف بربوبيتك ، ونوحدك ونخدمك ، وإياك نستعين على ما كلفتنا بما هو لك ، وإليك المشيئة والإرادة فيه ، والعلم والإخلاص لك ، ولن نقدر على ذلك إلا بالمعونة والتسديد لنا منك ، إذ لا حول لنا ولا قوة الا من عندك ، ألست تراه تعالى يقول لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون) وقال لهم فى مقام آخر (ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا) ففى بدر خرجوا بالذلة لله من حولهم وقوتهم ، فجاءهم عون الله ، وفى حنين نظروا لكثرتهم وقوتهم فى بادىء الأمر ، فلم تغنهم الأسباب عن معونة المسبب ، وهذا ما يعلمنا الإفتقار إليه سبحانه

فى كل حال ، لأنه تعالى مالك الحال والمال .

إياك نعبد شريعة ، وإياك نستعين حقيقة ، إياك نعبد إسلاما ، وإياك نستعين إحسانا ، إياك نعبد عبادة ، وإياك نستعين عبودية ، إياك نعبد فرق ، وإياك نستعين جمع وإن شئت قلت إياك نعبد لأهل العمل لله وهم المخلصون ، وإياك نستعين لأهل العمل بالله وهم الموحدون ، العمل لله يوجب المثوبة ، والعمل بالله يوجب القربة ، العمل لله نعت كل عابد ، والعمل بالله نعت كل قاصد العمل لله قيام بأحكام الظاهر ، والعمل بالله قيام باصلاح الضمائر .

ويقول القارىء : إياك نعبد وإياك نستعين بلغة الجمع وإن كان مفردا ليندمج بهذا الخطاب فى جماعة المؤمنين بالله من الملائكة والإنس والجن . وفى ذلك إشارة إلى بركة الجماعة ، وصدق مولانا رسول الله صلى عليه وسلم إذ يقول : (الجماعة رحمة ، والفرقة عذاب ويد الله مع الجماعة) .

ثم إن كل عمل من أعمال الدنيا أو الآخرة يحتاج الإنسان للنجاح فيه إلى التوفيق والصبر والقوة ، وكلها بيد الله تعالى ، بدليل قوله تعالى :

(وما توفيقى إلا بالله)

وقوله تعالى :

(أصبر وما صبرك إلا بالله)

وقوله تعالى :

(ماشاء الله لاقوة الا بالله)

ومن هنا وجبت الاستعانة بالله فى كل الأعمال .

قال الإمام القشيرى رضى الله عنه :

إن الناس فى شهوات القدرة والحكمة على ثلاثة أقسام :

قسم حجبوا بالحكمة عن شهوات القدرة ، وهم أهل الحجاب من أهل الغفلة ، وقفوا على قوله تعالى (إياك نعبد)

وقسم حجبوا بشهود القدرة عن الحكمة ، وهم أهل الفناء من أهل الخمرة ، وقفوا على قوله (إياك نستعين) .

وقسم لم يحجبوا بالقدرة عن الحكمة ، ولا بالحكمة عن القدرة ، أعطوا كل ذى حق حقه ، ووفروا لكل ذى قسط قسطه ، وهم أهل الكمال من أهل البقاء ، جمعوا بين قوله (إياك نعبد وإياك نستعين) .

(اهدنا الصراط المستقيم)

أرشدنا إلى دين الإسلام ، الذى هو الطريق إليك ، بمعونة منك ، وهى البصيرة ، فإنا لا نهتدى الابك ، اهدنا مرادك منا من الصدق والإخلاص فى العبودية والخدمة ، أو أهدنا هدى العيان بعد البيان ، لنستقيم لك حسب إرادتك ، أو اهدنا هدى من يكون منك مبدؤه ، ليكون إليك منتهاه ، أو ثبتنا على الطريق الذى لا اعوجاج فيه ، وهو الإسلام ، وهو الطريق المستقيم والمنهج القويم .

وقد سئل الإمام سهل التسترى : أليس قد هدانا الله إلى الصراط المستقيم بتوفيقنا للاسلام ؟ فلماذا نقول (إهدنا الصراط المستقيم) فقال : بلى ولكننا نطلب منه الزيادة ، ألست تراه تعالى يقول : (ولدينا مزيد) .

(صراط الذين أنعمت عليهم)

أى : منازل الذين أنعمت عليهم بالمحبة والمعرفة ، وحسن الأدب فى الخدمة . وقد بينتهم الآية الكريمة (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) .

(غير المغضوب عليهم)

أى المطرودين عن باب العبودية ، أو الذين وقفوا عن السير باتباع الحظوظ والشهوات ، فوقعوا فى مهاوى العصيان والمخالفات .

(ولا الضالين)

أى المفلسين المحرومين من نفائس المعرفة ، أو الذين حبسهم الجهل والتقليد ، فلم تنفذ بصائرهم إلى إخلاص التوحيد .

وقال الإمام الغزالى رضى الله عنه فى الأحياء :

(إذا قلت بسم الله الرحمن الرحيم ، فافهم أن الأمور كلها بالله وأن المراد بالإسم هنا المسمى) .

(وإذا كانت الأمور كلها بالله ، فلا جرم أن الحمد لله كله) .

(وإذا قلت الرحمن الرحيم ، فأحضر فى قلبك لطفه لتفتح لك رحمته ، فينبعث بها رجاؤك ثم استشعر من قلبك التعظيم ، والخوف من قوله يوم الدين ، ثم جدد الإخلاص بقولك (إياك نعبد) ، وجدد العجز والاحتياج

والتبرى من الحول والقوة بقولك (وإياك نستعين ثم اطلب حاجتك وقال (إهدنا الصراط المستقيم) ، الذى يسوقنا إلى جوارك ، ويفضى بنا إلى مرضاتك ، وزده شرحا وتفصيلا وتأكيدا ، واستشهد بالذين أفاض عليهم نعم الهداية من النبين والصديقين والشهداء والصالحين ، دون الذين غضب عليهم من الكفار الزائغين) .

وأنتقل بعد فاتحة الكتاب إلى آيات متفرقة يدل تأويلهم فيها دلالة واضحة على أن السادة الصوفية هم أهل السبق والعمل والمذاق ، ولا عجب فإنهم جاهدوا بعزم أكيد فى سبيل الله ، فآتاهم الله تقواهم مصداقا لقوله تعالى :

(والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين [١]) .

(الله ولى الذين آمنوا)

أى ولاية الرضا ، فهو المتولى لهم ، بما سبق لهم من هدايته ، ودلالتهم على توحيده ، وذلك لعلمه بتبريهم من كل سببب إلا من خالفهم ، فأخرجهم من الظلمات إلى النور ، ومن الكفر والضلالة والمعاصى والبدع إلى الإيمان وهو النور الذى أثبته الحق عز وجل فى قلوبهم ، وهو نور بصيرة اليقين ، الذى به يستبصرون التوحيد ، والطاعة فيما أمر ونهى ،

(ومن لم يجعل الله له نورا فما له نور) [٢] .

---

[١] سورة العنكبوت : آية ٦٩

[٢] سورة النور : آية ٤٠

(والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت)

أى الشيطان ، ورأس الطواغيت كلها النفس ، لأن الشيطان لا يقدر على الإنسان إلا من طريق هوى النفس ، فإن أحس منها بماتهم به ، ألقى إليها الوسوسة ، فإذا جاوز العبد بحسن ظنه بالله جميع الحجب ، بحيث لا يكون بينه وبين ربه حجاب ، فلا يكون للنفس ولا للشيطان ولا للدنيا دخول على قلبه وفؤاده بالوساوس ، كما قال تعالى :

(إن كيد الشيطان كان ضعيفا)

ويقول الصوفية : أن أعداء الإنسان التى تقطعه عن ربه أربعة :

النفس ، والشيطان ، والدنيا ، والناس

وهم يقولون : إن مجاهدة النفس تكون بمخالفة هواها وتحميلها ما يثقل عليها حتى ترتاض .

ومن حكمهم : جوروا على نفوسكم بقدر ما جارت عليكم بإبعادكم عن ربكم ، ولا يغيب عنكم أن الذى خلقها ، وركبها فيكم ، وصفها بأنها أمارة بالسوء ، وهى صيغة مبالغة من الأمر ، وهو ما يوجب عليكم جهادها الجهاد الأكبر ، فيجاهدها المؤمن أولا فى القيام بجميع المأمورات ، وترك جميع المنهيات ، ثم يجاهدها ثانيا ، فى ترك العوائد والشهوات ، ومجانبة الرخص والتأويلات ، ثم يجاهدها ثالثا فى ترك التدبير والأختيار والسكون تحت مجارى الأقدار ، حتى لا تختار إلا ما اختار الحق تعالى لها ، ولا تشتهى إلا ما يقضى الله عليها ، فإن النفس جاهلة بالعواقب

فعسى أن تكره شيئا وهو خير لها ، وعسى أن تحب شيئا وهو شر لها ، فالواجب تسليم الأمور إلى خالقها الذى هو عالم بمصالحها والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

ومجاهدة الشيطان تكون بعصيانه والأشتغال بالله عنه ، وهو يذوب بذكر الله عداوة العدو حقا هى إشتغالك بمحبة المحبوب حقا ؛ وقد قال تعالى :

(إن الشيطان لكم عدوا فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) [١] .

ومجاهدة الدنيا تكون بالزهد فيها ، ومعنى الزهد عندهم ألا تفرح بموجود ، ولا تحزن على مفقود ، عملا بقوله تعالى :

(لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم [٢])

ومجاهدة الناس تكون بعدم الاشتغال بها لا سرا ولا جهرا ، لأن الاشتغال برب الناس يغنى عن الاشتغال بالناس الذى يورث الغفلة .

ويقول بعض الصوفية :

إنى بليت بأربع يرموننى ... بالنبل من قوس له توتير
إبليس والدنيا ونفسى والهوى ... يارب أنت على الخلاص قدير

(وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) [٣] .

توحيد الخلق لله تعالى عند السادة الصوفية على درجات :

---

[١] سورة فاطر آية ٦ .
[٢] سورة الحديد آية ٢٣ .
[٣] سورة البقرة آية ١٦٣ .

الدرجة الأولى :

توحيد العامة ، وهو الذى يعصم النفس والمال وينجوبه من الخلود فى النار ، وهو نفى الشركاء والأنداد والصاحبة والأولاد والأشباه والأضداد .

الدرجة الثانية :

توحيد الخاصة ، وهو أن يرى الأفعال كلها صادرة من الله وحده ، ويشاهد ذلك بطريق الكشف لا بطريق الاستدلال ، لأن الاستدلال حاصل لكل مؤمن ، وانما مقال الخاصة ، يقين فى القلب بعلم ضرورى ، لا يحتاج إلى دليل ، وثمرة هذا العلم ، الانقطاع إلى الله ، والتوكل عليه وحده ، فلا يرجو إلا الله ، ولا يخاف أحدا سواه ، إذ لا يرى فاعلا إلا اللة، ويصفون اليقين فى هذه الدرجة بأنه أبهر نورا من نور الشمس ، ويقولون :

هذه الشمس قابلتنا بنور ولشمس اليقين أبهر نورا

قد رأينا بهذه النور لكن بهاتيك قد رأينا المنيرا

الدرجة الثالثة :

توحيد خاصة وهو ألا يروا فى الوجود إلا الله ، ولا يشهدون معه سواه ، فيغيبون عن النظر إلى الأكوان ، وعن أنفسهم بشهود المكون ، وهو خالقهم وحبيبهم ، وهذا هو مقام الفناء ، ويقول فيه الشهيد الحلاج :

اقتلونى يا ثقاتى إن فى قتلى حياتى
ومماتى فى حياتى وحياتى فى مماتى
أنا عندى محو ذاتى من أجل الكرمات
وبقائى فى صفاتى من قبيح السيئات

ويقول فيه سيدى إبراهيم الدسوقى : وخذنى إليك منى ، وارزقنى الفناء عنى ، واكشف لى عن كل سر مكتوم ، يا حى يا قيوم .

ويقول فيه أستاذى العارف بالله الشيخ على عقل رضى الله عنه :

فنيت به عن غيره فاستمسكت بالباقية
إن كان جسمى بالفناء سقوفه متداعية
فالروح بعد فنائه فى الخلد شمس سامية

وعندهم أن أهل الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان الذين قدسوا الحق تعالى عن أن يحتاج إلى دليل ، وقالوا كيف يعرف بالمعارف من به عرفت المعارف ، وكيف يستدل عليه بما هو فى وجوده مفتقر إليه ، أيكون لغيره من الظهور ما ليس له ، ومتى توصل إليه ويقول قائلهم :

لقد ظهرت فما تخفى على أحد إلا على أكمه يبصر القمرا
لكن بطنت بما أظهرت محتجبا وكيف يبصر من بالعزة استترا

ويقولون فى تجريد التوحيد :

رأيت ربى بعين قلبى فقلت لا شك أنت أنت

أنت الذى حزت كل أين بحيث لا أين ثم أنت

فليس للاين منك أين فيعرف الأين أين أنت

وليس للكيف منك كيف فيعرف الكيف كيف أنت

أحطت علما بكل شىء فكل شىء أراه أنت

وقد قال أحد كبار الصوفية لذى النون المصرى رضى الله عنهما ؛ دع عنك الخلاف والاختلاف ، قال : أليس إختلاف العلماء رحمة ؟ قال إلا فى تجريد التوحيد ، قال : وما تجريده ؟ قال : فقدان رؤية ما سواه .

وسيظهر قريبا فى تجريد التوحيد للجيل الجديد كتاب لأخى الصوفى الملهم السيد / أحمد عبد المنعم الحلوانى ، أحد خلفاء سيدى الشيخ أبى خليل رضى الله عنه ، وإن شاء الله تجدون فيه مزيد من مذاقات الصوفية الصافية .

وعندهم كذلك أن من قال (لا إله إلا الله) فقد بايع الله ، فحرام عليه إذا بايعه أن يعصيه فى شىء من أمره ونهيه ، فى سره وعلانيته ، أو يوالى عدوه ، أو يعادى وليه ، ويجب أن يفقه معنى (لا إله إلا الله) ، وهو لا نافع ولا دافع إلا الله .

(ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله)

المؤمنون يعبدون رباً واحداً فاتحدت محبتهم ، والكفار تعددت معبوداتهم فافترقت محبتهم ، لذلك كان الذين آمنوا بالله ووحدوه أشد

حباً لله ، لأنهم لا يلتفتون عن محبوبهم فى الشدة ولا فى الرخاء ، بخلاف الكفار فإنهم يعبدون الأصنام فى وقت الرخاء ، فإذا نزل بهم البلاء التجأوا إلى الله ، كما خاطبهم الله تعالى :

(ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون) .

ومحبة الله تقوى وتضعف ، على قدر المعرفة ، فإذا قويت معرفة العبد لربه ، تمكنت محبته من قلبه ، وظهرت آثارها على الجوارح من الجد فى طاعته ، والحرص على مرضاته ، والتلذذ بمناجاته ، والرضا بقضائه ، والشوق الى لقائه ، والأنس بذكره ، ومحبته كل ما يحب الله ، وإيثار الله على كل ماسواه .

وقد قال الإمام الحارث المحاسبى رضى الله عنه :

(المحبة : ميلك إلى المحبوب بكليتك ، ثم إيثارك له على نفسك وروحك ، ثم موافقته سرا وجهرا ، ثم علمك بتقصيرك فى حبه) .

وقال الإمام أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه :

(المحبة آخذة من قلب عبده المؤمن كل شىء سواه ، فترى النفس مائلة لطاعته ، والعقل متحصنا بمعرفته . والروح مأخوذة فى حضرته ، والسر مغموراً فى مشاهدته ، والعبد يستزيد ، فيزداد ، ويفاتح هو بما أعذب ، من لذيذ مناجاته ؛ ليكسى حلل التقريب على بساط القربة فيمس أبكار الحقائق وثييات العلوم) .

ويقول الإمام سهل التسترى رضى الله عنه : النيران أربعة : نار الشهوة ، ونار الشقاوة ، ونار القطيعة ، ونار المحبة . فنار الشهوة تحرق

الطاعات ، ونار الشقاوة تحرق التوحيد ، ونار القطيعة تحرق القلوب ، ونار المحبة تحرق النيران كلها .

ويقول أستاذى العارف بالله الشيخ على عقل (المتوفى سنة ١٩٤٨ م) فى فيوضاته الإلهامية التى سجلتها عنه :

إنا محبوه آثرنا الحياة له — فلا نلام على إحياء تقواه
إن كان حبى جنوناً بئسما زعموا — يارب زدنى جنوناً أنت منحاه
قالوا صف الحب لا تخطئه فى صفة — إن كان وصفك بالحق اتبعناه
فقلت صدق وإخلاص وتكرمة — وأن تموت وأن المقصد الله
وأن تسير على الشرع الشريف ولا — تخل بالحكم أو تلعب بمعناه
وأن تكون مع الرحمن منكسراً — وأن يكون لك البارى هو الجاه
فإن تكن هكذا كنت المحب فإن — قالوا ابتدعتم أجبنا قد رضيناه
ومن سوى الله نرضاه ونقصده — من ذا يشابه رب العرش نهواه

ويقول أيضاً فى المفارقة بين نار الدنيا ونار المحبة :

والنار تطفئها المياه وإنما — نار المحبة جذوة لا تنطفى

ويقول أيضاً :

أنا من حبى لحضرته — لم أفق من لذة النغم
أنا من حبى لحضرته — تارك للناس كلهم
لم يثرنى الناس فى كلم — إنما الله مدى كلمى
يجتلينى الحب فى سهرى — ونجوم الليل من خدمى

وأنتم ترون مما تقدم أن المحبة مذاق روحى ، ومن الصعب التعبير

عن هذا المذاق الوجدانى الباطنى ، ولكن قد يقرب لنا فهم هذا المذاق ، ما روى عن الحب فى القصة التالية :

دخل الإمام على بن الإمام الحسين رضى الله عنهما مغارة مع أصحاب له ، فرأى امرأة فى المغارة وحدها ؛ فقال لها من أنت ؟ قالت أمة من إماء الله ، ، إليك عنى ، لا يذهب الحب ، فقال لها الإمام رضى الله عنه ، وما الحب ؟ فقالت : أخفى من أن يرى ؛ وأبين من أن يخفى ، كمونه فى الحشا ككمون النار فى الحجر ؛ إن قدحته أورى ؛ وإن تركته توارى ، ثم أنشدت تقول :

إن المحبين فى شغل لسيدهم   كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا

(وإنك لعلى خلق عظيم) [1]

أى تأدبت بأدب القرآن فلم تتجاوز حدوده وهو قوله تعالى :

(إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) [2] .

وقد وصفت مولاتنا عائشة رضى الله عنها خلق مولانا رسول الله صلى عليه وسلم فقالت :

(كان خلقه القرآن ، يرضى برضاه ، ويسخط بسخطه)

وقد وصفه تعالى بالرحمة فقال :

---

[1] سورة القلم آية ٤ .

[2] سورة النحل آية ٩٠ .

(فبما رحمة من الله لنت لهم) [1]
وقال :
(بالمؤمنين رءوف رحيم) [2] .
وهم يقولون إن الغضب والحدة من سكون العبد إلى قوته ، فإذا خرج من سكونه إلى قوته ، سكن الضعف فى نفسه ، فتتولد منها الرحمة واللطف ، وهو التخلق بأخلاق الرب جل جلاله ، وقد أوحى الله إلى داود عليه السلام فقال :
((تخلق بأخلاقى فإنى أنا الصبور ، فمن أوتى الخلق الحسن فقد أوتى أعظم المقامات ، لأن ما دونه من المقامات إرتباط بالعامة ، والخلق الحسن إرتباط بالصفات والنعوت)) .
ويروى السادة الصوفية أن أبا سعيد الخدرى رضى الله عنه وصف رسول الله صلى فقال :
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعقل البعير ، ويعلف الناضح ، ويقم البيت ، ويخصف النعل ، ويرقع الثوب ، ويحلب الشاة ، ويأكل مع الخادم ، ويطحن معها إذا هى أعيت ، وكان لا يمنعه الحياء أن يحمل بضاعته من السوق إلى أهله وكان يصافح الغنى والفقير ، ويسلم مبتدئا ، وكان لا يرد من دعاه ، ولا يحقر ما دعى إليه ، ولو إلى حشف التمر ،

---
[1] سورة آل عمران آية ١٥٩ .
[2] سورة التوبة آية ١٢٨ .

وكان لين الخلق ، كريم الطبع ، جميل المعاشرة ، طلق الوجه ، بساما من غير ضحك ، محزونا من غير عبوس ، متواضعا من غير ذلة ، جوادا من غير سرف ، رقيق القلب ، دائم الإطراق ، رحيما بكل مسلم ، لم يتجشأ قط من شبع ، ولا مد يده إلى طمع .

كما يروون أنه كان من خلقه صلى الله عليه وسلم :

(الحياء والسخاء ، والتوكل ، والرضا ، والذكر ، والشكر ، والحلم ، والصبر ، والعفو ، والصفح ، والرأفة ، والرحمة ، والمدارة ، والنصيحة ، والسكينة ، والوقار ، والتواضع ، والافتقار ، والجود ، والسماحة ، والخضوع ، والقوة ، والشجاعة ، والرفق ، والإخلاص ، والصدق ، والزهد ، والقناعة ، والخشوع ، والخشية ، والتعظيم ، والهيبة ، والدعاء ، والبكاء ، والخوف ، والرجاء ، والليإذة ، واللجاء ، والتهجد ، والعبادة ، والجهاد ، والمجاهدة) .

وقد سئل الإمام سهل التسترى عن الكرامات فقال : وما الكرامات ؟ إن الكرامات شىء ينقضى لوقته ، ولكن أكبر الكرامات أن تبدل خلقا مذموما من أخلاقك بخلق محمود .

(إن المتقين فى جنات وعيون)

المتقون لهم جنتان ، جنة فى الدنيا هى جنة المعارف ، وجنة فى الآخرة هى جنة الزخارف ، وفى جنة المعارف ينعمون بجنات الرضا وفيها يتلقون ، كما ينعمون بعيون الأنس وفيها يسبحون ، ولمن خاف مقام ربه جنتان .

وقد مات لمولانا الإمام الحسين ابن ، فلم ير الناس عليه الحزن ،

فسألوه فى ذلك فقال يعلمنا الرضا بقضاء الله تعالى : (نحن أهل البيت نسأل الله فيعطينا ، فإذا أراد ما نكره فيما يحب رضينا) .

ويقول سيدى عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه فى مقام الرضا والتسليم :

لا الأمر أمرى ولا التدبير تدبيرى
ولا الأمور التى تجرى بتقديرى
لى خالق رازق ما شاء يفعل بى
أحاط بى علمه من قبل تصويرى

وقد قال سيدى عبد السلام بن مشيش لتلميذه سيدى أبى الحسن الشاذلى :

(أصبحت أشكو إلى الله من برد الرضا والتسليم ، كما تشكو أنت من حر التدبير والاختيار).

فقال سيدى أبو الحسن :

(أما شكواى من حر التدبير والإختيار فقد ذقتهما وأنا الآن فيه ، وأما شكواك من برد الرضا والتسليم فما ذقتهما ، فقال أخاف أن تشغلنى حلاوتهما عن الله) .

وقال سيدى على البيومى رضى الله عنه وهو من أئمة طريقتنا :

كل له ورد يكون وسيلة
لمعاشه ومعاذه ومعاده
وجعلت وردى فى الخروج عن السوى
وأكون مع مولاى تحت مراده

ويقول أستاذى العارف بالله الشيخ على عقل طيب الله ثراه :

رضينا بما يرضيك أنت منانا وإن نطلب اللقيا فأنت علانا

علمونى كيف المسير إلى الله وقالوا خذ الرضا تيجانا

ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين :

يعنى فروا مما سوى الله إلى الله ، وفروا من المعصية إلى الطاعة ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن عذابه إلى رحمته ، ومن سخطه إلى رضوانه .

وكانت السيدة رابعة العدوية تقول :

(إلهى إنى أحب الدنيا لأذكرك فيها ، وأحب الآخرة لأراك فيها ، إلهى كل ساعة تمر على لا يكون لسانى فيها رطبا بذكرك فهى مشؤومة ، إلهى لا تجمع على أمرين فإنى لا أطيقهما ، الإحراق بالنار والفراق منك) .

إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات والذكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما :

قال الإمام سهل التسترى :

(الإيمان أفضل من الإسلام ، والتقوى فى الإيمان أفضل من

الإيمان ، واليقين فى التقوى أفضل من التقوى ، والصدق فى اليقين أفضل من اليقين) .
وقال : الإيمان بالله فى القلب ثابت ، واليقين بالصدق راسخ ، فصدق العين ترك النظر إلى المحظورات ، وصدق اللسان ترك مالا يعنى ، وصدق اليد ترك البطش للحرام ، وصدق الرجلين ترك المشى إلى الفواحش ، والله تعالى أعطى الصدقين من العلم ما لو نطقوا به لنفد البحر من نطقهم . والذاكر على الحقيقة من يعلم أن الله مشاهده فيراه بقلبه قريبا منه فيستحى منه ، ثم يؤثره على نفسه وعلى كل شىء من جميع أحواله .
وسئل الإمام سهل التسترى : ما الذكر ؟ فقال : الطاعة ، قيل ما الطاعة ؟ قال الإخلاص ، قيل ما الإخلاص ؟ قال المشاهدة ، قيل ما المشاهدة ؟ قال العبودية ، قيل ما العبودية ؟ قال الرضا ، قيل ما الرضا ؟ قال الافتقار ، قيل ما الافتقار ؟ قال التضرع والالتجاء ، سلم سلم إلى الممات .
وقال ابن سالم ، الذكر ثلاث :
(ذكر باللسان فذاك الحسنة بعشر ، وذكر بالقلب فذاك الحسنة بسبعمائة ، وذكر لا يوزن ثوابه وهو الامتلاء من المحبة) .
وحدثوا أن أبا عبيد الله الخواص كان يصيح فى بغداد ويقول :
(أنا من ذكرك جائع لم أشبع ، أنا من ذكرك عطشان لم أرو ، واشوقاه إلى من يرانى ولا أراه) .
وهم يقولون إن الله عز وجل قال :

(فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا) [١] .

وقال :

(اذكروا الله ذكرا كثيرا) [٢]

وقال :

(فاذكرونى أذكركم) [٣]

فالمذكور ، واحد والذكر مختلف ، ومحل قلوب الذاكرين متفاوت ، فصار الذاكرون لله متفاوتين فى ذكرهم كتفاوتهم فى المخاطبة لهم فى الذكر .

(وفديناه بذبح عظيم)

قال الإمام سهل التسترى رضى الله عنه ، لما أحب إبراهيم عليه السلام ولده بطبع البشرية ، تداركه من الله فضله وعصمته حتى أمره بذبحه ، إذ لم يكن المراد منه تحصيل الذبح ، وإنما كان المقصود تخليص السر لله ، فلما رجع إبراهيم عليه السلام عن عادة الطبع فدى الله إسماعيل عليه السلام بذبح عظيم .

(إن هذا لهو البلاء المبين)

قال الإمام سهل التسترى رضى الله عنه يعنى بلاء رحمة ، ألا ترون كيف

---

[١] سورة البقرة آية ٢٠٠
[٢] سورة الأحزاب آية ٤١
[٣] سورة البقرة آية ١٥٢

بعثه على الرضا ، فهم بذبح ولده غير عابىء بطبع االبشرية ، وقال الإمام سهل : بلغنا أنه مكتوب فى الزبور ما قضيت على مؤمن قضاء أحبه أو كرهه إلا وهو خير له .

(ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) .

أضافهم تعالى إلى نفسه وحلاهم بحلية الصلاح ومعناه لا يصلح لى إلا ما كان خالصا لى ، لا يكون لغيرى فيه أثر ، وهم الذين أصلحوا سريرتهم مع الله وآثروه تعالى على ما سواه .

(إن فى هذا لبلاغاً لقوم عابدين)

أى لم يجعله بلاغا لجميع عباده بل خصه لقوم عابدين ، وهم الذين عبدوه تعالى وبذلوا فيه مهجهم ، لا من أجل عوض ، ولا من أجل الجنة ، ولا من أجل النار ، بل حبا له وافتخارا بما أهلهم لعبادتهم إياه .

تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا)

يعنى جل وعلا من خص سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم بنزول القرآن ، ليفرق بين الحق والباطل ، والولى والعدو ، والقريب والبعيد وهو صلى الله عليه وسلم عبده الأخلص ، ونبيه الأخص ، وحبيبه الأدنى ، وصفيه الأولى ، ليكون للخلق سراجا ونورا يهتدون به إلى أحكام القرآن ويستدلون به على طريق الحق ، ومنهاج الصدق .

ويروى السادة الصوفية عن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لمعاذ

(إن المؤمن قد قيده القرآن عن كثير من هوى نفسه وحال بينه وبين أن يهلك فيما هوى بإذن الله ، ان المؤمن لذى الحق أسير ، يامعاذ إن المؤمن يسعى فى فكاك رقبته ، يامعاذ إن المؤمن لا تسكن روعته ، ولا يؤمن إضطرابه حتى يخلف جسر جهنم ، يامعاذ إن المؤمن يعلم أن عليه رقباء على سمعه وبصره ، ولسانه ويديه ورجليه ، وبطنه وفرجه ، حتى اللمحة ببصره ، وفتات الطينه بأصبعه وكحل عينه ، وجميع سعيه ، والتقوى رفيقه ، والقرآن دليله ، والخوف محجته ، والشوق مطيته ، والوجل شعاره ، والصلاة كهفه ، والصيام جنته ، والصدقة فكاكه ، والصدق وزيره ، والحياء أميره ، وربه من وراء ذلك كله بالمرصاد ، يامعاذ إنى أحب لك ما أحب لنفسى ، وأنهيت إليك ما أنهى إلى جبريل صلوات الله عليه ، فلا أعرفن أحدا يوافينى يوم القيامة أسعد بما آتاه الله تعالى منك .

الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذي يميتنى ثم يحيين . والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين :

الذى خلقنى فهو يهدين ، أى خلقنى لعبوديته فهو يهدينى إلى قربه .

والذى هو يطعمنى ويسقين ، أى يطعمنى لذة الإيمان ويسقنى شراب التوكل والكفاية .

وإذا مرضت فهو يشفين ، أى إذا تحركت بغيره لغيره عصمنى ، وإذا ملت إلى شهوة من الدنيا منعها عنى .

والذين يميتنى ثم يحين ، أى يميتنى بالغفلة ، ثم يحيينى بالذكره فحياة الروح بالذكر ، وحياة الذكر بالذاكر ، وحياة الذاكر بالمذكور .

والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ، أخرج كلامه على شروط الأدب بين الخوف والرجاء ولم يحكم على الله بالمغفرة .

(وإن ربك لذو فضل على الناس)

أى منعه فضل ، كما أن عطاءه فضل ، ولكن لا يعرف مواضع فضله فى المنع إلا خواص الأولياء .

(وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب)

إن الله نبه عباده على انقضاء الأوقات وغفلتهم فيها ، فجعل الجبال مثلا للدنيا ، يظن الناظر إليها أنها واقفة معه وهى آخذه بحظها منه ، ولا يبقى الإنقضاء الا الحسرة على الفائت

(فسقا لهما ثم تولى إلى الظل فقال ربى إنى لما أنزلت إلى من خير فقير)

رجع إلى الله تعالى بالإفتقار والتضرع فقال : إنى لما عودتنى من جميل إحسانك على الدوام ، فقير إلى شفقتك ونظرك إلى بعين الرعاية والكلاءة فردنى من وحشة المخالفين إلى أنس الموافقين ، فرزقه الله صحبة شعيب وأولاده صلوات الله عليهم أجمعين .

(النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم)

من لم ير ولاية الرسول صلى الله عليه وسلم فى جميع الأحوال لم يذق حلاوة سنته بحال ، لأنه صلى الله عليه وسلم أولى بالمؤمن وهو يقول فى حديثه الشريف :

((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين)) .

ويقول أستاذى العارف بالله الشيخ على عقل فى ذلك :

أنا كل شىء فى الحياة تركته ووقفت نفسى للنبى مثابرا
والوقف لا يشرى وليس يباع فى حال يدوم إلى القيامة حاضرا
انا باسمكم وإلى اسمكم ولوسمكم فى رسمكم قلبى على الشعرى سرا

(يوم لا يخزى الله النبى)

أى لا يخزيه فى أمته ، ولا يرد شفاعته ، ولقد أوحى الله تعالى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال :

(إن أحببت جعلت أمر أمتك إليك) .

فقال :

(ياربى أنت خير لهم منى) .

فقال الله تعالى :

(إذن لا أخزيك فيهم) .

(يقولون ربنا أتمم لنا نورنا)

أى لا يسقط الافتقار إلى الله عز وجل عن المؤمنين فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وهم فى الجنة أشد إفتقارا إليه ، وإن كانوا فى دار الأمن والعز والغنى ، لشوقهم إلى لقائه يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا وأرزقنا لقاءك ، فإنك منور الأنوار وغاية الطلاب .

(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة)

يعنى إشتراها من شهوات الدنيا وما يوجب الاشتغال عن ذكره حتى تكون نفسه وأمواله ، فمن لم يبع الله حياته الفانية ، وشهواته الزائلة ، كيف يعيش مع الله تعالى ، كيف يحيا حياة طيبة .

وقد اشترى الله منهم فانيا بباق ، فعوضهم بما هو خير ، مع أن ما فى الكونين داخل فى ملكه ، وهذا من غاية لطفه وكرمه بعباده المؤمنين .

(أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت)

يفسرها قوله تعالى : (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) .

كما يفسرها قوله تعالى (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) ، وهو العرق الذى جوف القلب ، فأخبر أنه أقرب إلى القلب من ذلك العرق ، فإذا علمت ذلك ينبغى أن تستحى منه ، وما هاج فى القلب شىء مما تهوى النفس ، فذكر العبد قيام الله عليه فتركه مخافة الله وحياء منه ، إلا دخل

قلبه من علم حاله ما لو قسم على أهل المدينة لسعدوا جميعا .
وقد سئل الإمام سهل التسترى عن معنى قوله صلى الله عليه وسلم (طلب العلم فريضة على كل مسلم) فقال يعنى علم الحال ، قيل وما علم الحال ، قال من الباطن ، وباطنه كما ظاهره ، فهو فى تعب من البدن ، قيل وما تفسير ذلك ، قال إن الله قائم عليك فى سرك وعلانيتك ، وحركتك وسكونك ، لا تغيب عنه طرفة عين .
وقد أشار إلى ذلك الإمام مالك بن أنس حين قال ، ليس العلم بكثرة الرواية ، إنما العلم نور يجعله الله فى القلب ، قيل كيف يعرف الرجل الحال والعمل به ؟ فقال إذا كنت تتكلم فحالك الكلام ، وإذا سكت فحالك السكوت ، وإذا قمت فحالك القيام ، وإذا قعدت فحالك القعود ، والعلم به أن تنظر أن هذا الحال لله أو لغيره ، فإن كانت لله استقررت عليها ، وإن كانت لغيره تركتها ، وهو المحاسبة التى أمر بها عمر رضى الله عنه حيث قال : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا ، وقد كان عمر رضى الله عنه يضرب نفسه بالدرة فى المحاسبة .
(وذروا ظاهر الإثم وبأطنه)
فيه تنبيه لذوى الألباب الذين وصل لهم القول ليذكروا ، أن يذروا ظاهر الإثم شكرا لظاهر النعم ، ويذروا باطن الإثم شكرا لباطن النعم . وظاهر النعم عوافى الأجساد ، ووجود الكفايات من الأموال ، وظاهر الإثم أعمال الجوارح من معانى حظوظ النفس ، وباطن النعم

معافاة القلوب وسلامتها من الزيغ والشك والشرك والنفاق وسوء النيات ، وباطن الإثم أعمال القلوب السيئة ، مثل الإصرار وسوء الظن بالله ، والغل والحسد .

(لئن شكرتم لأزيدنكم)

الشاكر على مزيد ، والشكور فى نهاية المزيد ، كما فى وصف سيدنا نوح عليه السلام (أنه كان عبدا شكورا) ، وهو الذى يكثر شكره على القليل من العطاء ، ويتكرر منه الشكر والثناء على الشىء الواحد من النعم .

وأول المزيد ، شهود النعم من المنعم بها من غير حول منا ولا قوة . وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة ، وختام تنيهم فى قوله تعالى :

(وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده)

وقال تعالى :

(وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين)

فلولا أن الحمد أحب الأعمال إليه ، ما أبقاه عليهم لديه .

وعلى المؤمن أن يشكر فى العطاء والمنع ، وأن يعرف أنه منعه مع قدرته تعالىعلى العطاء لحكمة فى المنع ، فيكون المنع عطاء ويعلم أنه عبد محكوم عليه بأحكام الربوبية ، وأنه لا يستحق على الله شيئا ، وأن

الله تعالى يستحق عليه كل شىء ، فالعبد خلقته وصنعته ، والرب صانعه ومالكه .
ومن شكر الجوارح أن العبد لا يعصى المنعم بها ، بل يستعين بنعمته على طاعته ، ولا يستعين بها على معاصيه ، فيكون قد كفر النعمة كما قال تعالى :
(ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا)
قيل فى معناه بدلوا شكر نعمة الله كفرا بأن أستعانوا بنعمه على معاصيه ، لأن الخلق لا يستطيعون تبديل نعمة الله عز وجل ، وهذا من ا لمضمر معناه لظهور دليله عليه .
وأكثر عقوبات الخلق من قلة الشكر على النعم ، وأصل قلة الشكر الجهل بالنعمة وسبب الجهل،بالنعمة قصور العلم بالله تعالى ، وطول الغفلة عن المنعم ، وترك التفكر فى نعمة ، والتذكر لآلائه مع أنه أمر بذلك فى مثل قوله تعالى :
(فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون) . أى نعمه
وقوله تعالى :
(وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا) .

وقوله تعالى :

(وأذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به) .

وقوله تعالى :

(ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون) . يعنى على الهداية وتوفيق الطاعة .

وأفضل النعم وأجلها نعمة الإيمان به سبحانه وتعالى ، ثم نعمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم نعمة القرآن ، ثم أن جعلنا من خير أمة أخرجت للناس ، فلو قلب قلوبنا عن التوحيد ، كما يقلب جوارحنا فى الذنوب ، ولو قلب قلوبنا فى الشك والضلال ، كما يقلب نياتنا فى الأعمال ، أى شىء كنا نصنع ، وعلى أى شىء كنا نعول ، وبأى شىء كنا نطمئن ونرجو ؟

ومن النعم الكبرى إظهار الجميل ، وستر القبيح ، فلا ندرى أى النعمتين أعظم ، جميل ما أظهر ، أو قبيح ما ستر ، ولذلك جاء فى الدعاء المأثور (يامن أظهر الجميل وستر القبيح) وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها .

(إن الانسان لربه لكنود)

قيل هو الذى يشكو المصائب وينسى النعم ، مع أنه ما من مصيبة إلا ولله تعالى فيها خمس نعم :

أولها أنها لم تكن فى الدين .

والثانية أنها لم تكن أكبر منها .

والثالثة أنها كانت مكتوبة عليه لا محالة ، فقد نفدت وأستراح منها .

والرابعة أنها عجلت فى الدنيا ولم تؤجل فى الآخرة ، فتعظم على مقدار عذاب الآخرة .

والخامسة أن ثوابها خير منها ، فإن المصيبة إذا كانت فى أمر الدنيا فإنها طريق إلى الآخرة.

(وأحسنوا ان الله يحب المحسنين)

فسرها سفيان الثورى رضى الله عنه فقال : أى أحسنوا بالله تعالى الظن ، وقد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل وهو فى سياق الموت فقال كيف تجدك ؟ فقال أجدنى أخاف ذنوبى وأرجوا رحمة ربى فقال عليه الصلاة والسلام :

(ما اجتمعا فى قلب عبد فى هذا الموطن إلا أعطاه الله تعالى مارجا وأمنة مما يخاف) .

ولذلك قال الإمام على كرم الله وجهه للرجل الذى أطار الخوف عقله حتى أخرجه إلى القنوط:

(يا هذا ليأسك من رحمة الله تعالى أعظم من ذنبك)

وقال سفيان الثورى أن من أذنب ذنبا فعلم أن الله تعالى قدره عليه ورجا غفرانه غفر الله له لأنه تعالى عير قوما فقال :

(وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم)

كما قال تعالى فى مثله :

(وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا)

أى هلكى ، ففى دليل خطابه عز وجل أن من ظن حسنا كان من أهل النجاة .

(وقال ربكم أدعونى أستجب لكم)

ومن حسن الظن بالله أن يكون الإنسان على يقين من إجابة الله تعالى إذا دعاه ، لأنه تعالى لا يقبل الدعاء إلا من موقن ، وفى الخبر (الدعاء نصف العبادة [3] ، ولا يقبل الله تعالى من الدعاء إلا الناخلة)

بمعنى المنخول وهو الخالص .

وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما من داع دعا موقنا بالإجابة فى غير معصية ولا قطيعة رحم ، إلا أعطاه الله تعالى إحدى ثلاث : إما أن يجيب دعوته فيما سأل ، أو يصرف عنه من السوء مثله ، أو يدخر له فى الآخرة ما هو خير له) .

وقد حكى بكر بن سليمان فقال : دخلنا على مالك بن أنس رحمة الله تعالى فى العشية التى قبض فيها فقلنا : كيف تجدك ؟ قال : ما أدرى ما أقول لكم ، إلا أنكم ستعاينون غدا من عفو الله تعالى مالم يكن لكم فى حساب قال فما برحنا حتى أغمضناه ودفناه .

وكان الإمام سهل التسترى رضى الله عنه يقول ((المحسن يعيش فى سعة الرحمة والمسىء يعيش فى سعة الحلم)) .

---

[3] وفى رواية مسلم والبخارى (الدعاء مخ العبادة) .

وكان الإمام بن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه يقول :

ففى إفتقارى وتسآلى ومد يدى　　　أقوى دليل على أن تقضى الاربا

لو لم تردنى لما أرجو وآمله　　　من فيض جودك ما علمتنى الطلبا

وفى هذا المقام أسأل الله لى ولكم فأقول (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) ، كما أقول (ربنا أغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك روءف رحيم) .

وأشكركم على حسن استماعكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

١٧ رمضان سنة ١٣٨٤هـ　　　١٩ يناير سنة ١٩٦٥